18

الفـــخ

لابد وأن تكتبوا أشياء سلبية عني، فقد كنت غبياً.

ريتشارد كيلي سميث للمؤلفين في ٢٠ أغسطس ٢٠٠٩

شعـر الزوجان سمـيث بارتياح كـاف جـعلهم يجـوبون أوروبا، ويقـابلون بشـكل متكرر أفراد عائلتـهم في مـواقع حدَّدوها مـسبقاً. وفي إحدى المناسبات سـافرا إلى مـدينة يورو ديزني الجـديدة على مـشـارف باريس لقضـاء الوقت مع أحـفادهمـا. وفي مناسـبة أخـرى سـافرا إلى جنوب فرنسـا ليشـهدا ابنهمـا الأكبر راندي وهو يشـارك في سبـاق القوارب الشراعية.

كان راندى سميث بحاراً مشهوراً، يظهر على أغلفة العديد من أهم مجلات الإبحار فى العالم، ولعب دور القبطان أمام كيفين كوستنر فى فيلم "ووترووررلد" أو عالم الماء، وبيرس بروسنان فى فيلم ذا "توماس كراون أفير" أو "علاقة توماس كراون الغرامية". وقاد القارب الشراعى الضخم إلى خارج مانهاتن بينما رينيه روسو تنظر إليه فى إجلال. وفاز أيضاً بميداليتين أوليمبيتين بكأس أمريكا عام ١٩٨٨ .

بعد ٩ أعوام من الإقامة فى إسبانيا، بلغ الزوجان سميث سن الخامسة والستين. وفى مخاطرة متهورة محيرة، قرر سميث التقدم لطلب فوائد الضمان الاجتماعى الأمريكى، مراهناً على عدم تمكن أى موظف متدنى المستوى فى نظام الضمان الاجتماعى الأمريكى من التعرف عليه. واتصل بالسفارة الأمريكية فى مدريد، وأعطاهم اسمه الحقيقى ورقم الضمان الاجتماعى الخاص به، وقدم طلباً بإرسال دفعاته الشهرية إلى حسابهما فى مصرف بانكو بيلباو فى مالاقا.

ومن الواضح أن رهان سميث كان فى محله، حيث لم يستطع موظفو المستوى الأدنى فى الحكومة الأمريكية التعرف على المتهم الهارب، وبدأوا يرسلون مبلغ ١٦٠٠ دولار شهرياً إلى ذلك الحساب. كانت مخاطرة وقحة طائشة، وبدا أنها آتت ثمارها. وبعد عام، أكملت إميلى عامها الـ٦٥ وكان يحق لها مبلغ إعانة الزوجة وقيمته ٤٠٠ دولار شهرياً. وقُبِل طلبها لهذا المبلغ أيضاً. ووفرت إيداعات الضمان الاجتماعى المنتظمة دخلاً شهرياً إضافياً رفع من مستوى حياة الزوجين سميث والتى كانت إميلى تصفه بالرعوى.

وبمرور الأعوام، تخليا عن حذرهما كلياً. واحتفلا بحريتهما مجدداً فى منتصف ليلة ١٣ ديسمبر عام ١٩٩٩، بمشاهدة الألعاب النارية فوق مالاقا مع بدء الألفية الجديدة. ولمدة ١٥ عاماً، تمكن الزوجان سميث من تفادى السلطات بينما يعيشان فى جنتهما الصغيرة.

فى يونيو ٢٠٠١، طلب مدير مصرف بانكو بيلباو من "جون شيلر" أن يمر على المصرف لعقد اجتماع قصير. اعتذر مدير المصرف وأخبر سميث أنه لكى يتمكن من الاستمرار فى استخدام هذا الحساب، فعليه الحصول على ترخيص مواطن غير مقيم، وسلم سميث نسخة من الاستمارة التى عليه ملؤها ليأخذها لاحقاً إلى قسم شرطة مالاقا ليختموها له. ووصف الأمر بأنه لا يتعدى كونه إجراءً بيروقراطياً روتينياً. واشتكى سميث بأنه استطاع استخدام هذا الحساب طوال سنوات بدون مشاكل، إذن لِمَ الجلبة الآن؟! هز مدير المصرف كتفيه وكأنه يعبر عن استيائه من هذا الأمر السخيف أيضاً، لكنه عليه أن يتبع الإجراءات.

ومن المصرف، قاد الزوجان سميث السيارة إلى قسم شرطة مالاقا وركناها، وبرشاقة صعدا السلم وصولاً للضابط الجالس فى المدخل وراء أحد المكاتب. وأرياه الاستمارة التى ملآها وأخبراه أنهما يريدان أن يختماها. فأخذ الضابط الاستمارة ونظر إليها بتمعن، وأعطاهما كعباً بموعد العودة وهو يشرح لهما بأن عليهما العودة فى ٩ يوليو لاستلام ترخيصهما. اعتادت الأمور أن تسير ببطء فى مالاقا.

وكما تم توجيههما عاد الزوجان سميث فى ٩ يوليو ٢٠٠١، وهما ينتظران ألا يستغرق الأمر أكثر من ٥ دقائق. وما أن وصلا لقسم الشرطة، تم توجيههما للذهاب لمنطقة المكتب الخلفى والانتظار. وبعدما مرت حوالى ١٥ دقيقة ولم يأت أحد، التفت سميث إلى إميلى وسألها:

"لِمَ يستغرقون كل هذا الوقت؟ سنتأخر عن رحلة السير على الشاطئ". وبعد ٥ دقائق دخل الغرفة ضابط طويل أزرق العينين يرتدى زياً أسود، وسار حتى جهاز الفاكس فى الركن، وأخرج ورقة كانت قد وصلت لتوها. ثم سار تجاههما، وسلم سميث الفاكس بدون أن ينطق بكلمة واحدة، وانتظر ليشاهد ردة فعله. ونظر سميث

إلى الورقة وصدم عندما رأى صورة أبيض وأسود له يبدو فيها أصغر بعشرين عاماً عن عمره البالغ آنذاك ٧٢ عاماً.

ولاحظ كلمة إنتربول أعلى الورقة. وطغى عليه إحساس مفاجئ بالفزع وتقلصت معدته قلقاً. فبعد ١٦ عاماً كان قد نسي تقريباً وضعه كهارب. وبطلبه فوائد الضمان الاجتماعي، فقد أشار مباشرة إلى موقعه. وبطلبه رخصة المواطن غير المقيم وقع فى الشرك المعد له بحنكة، ودخل قسم الشرطة، وسلم نفسه. وبالنسبة لشخص بالغ الذكاء، كان هذا غباء يفوق التصور.

وبعد لحظة لابد وأنها بدت كدهر، سأله الضابط "هل هذا أنت؟".

كان سميث مصدوماً لكنه أكد أن الصورة تبدو له. فالتفت الضابط إلى إميلى وقال:

حسناً، يمكنك الانصراف الآن، سألقى القبض على هذا الرجل.

لم تجد إميلى ما تقوله وفي الحال اعتراها الشحوب فيما بدأ الضابط يقيد زوجها بالأصفاد. بيّن سميث أنه يحتاج لأن يعطى زوجته مفاتيح السيارة لتذهب بها إلى المنزل. ومد يديه بمفاتيح السيارة فقبضت عليهما إميلى بقوة. نزع الضابط يديه، ولفهما بقوة وراء ظهره ووضع الأصفاد حول معصميه. لا أحضان ولا قبلات. وقفت إميلى فى وسط الغرفة وهى فى حالة صدمة هائلة بينما كان زوجها منذ حوالى ٥٠ عاماً يُصطحب حتى غاب عن الأنظار. لم يدركا الأمر فى تلك اللحظة، لكن كانت تلك هى المرة الأخيرة التى يراها فيها سميث كرجل حر ولأعوام تالية.

وحُشِر سميث فى زنزانة خرسانية بلا نوافذ بها منطقة إسمنتية مرتفعة تستخدم كفراش، وعليها بطانيتان قذرتان. وكان المرحاض فى آخر الرواق عبارة عن ثقب

بسيط فى الأرضية. ولم يكن هناك ورق تواليت. وكان الطعام يقدم فى أوعية بلاستيكية صغيرة. ولم يكن هناك حراس فى الليل، لذا عندما كان السجين ذو الثانية وسبعين سنة يحتاج للتبول بسبب البروستاتا المتضخمة، كان يتبول على أرضية زنزانته.

كانت الليلة الأولى بشعة. ومضى يستعيد العملية التى أدت للقبض عليه مراراً وتكراراً وبدأ يدرك كم كان أحمق، إذ فاتته كل الإشارات الواضحة المتجلية أمام عينيه. وأدرك أنه كان لديه العديد من الفرص منذ بداية الأحداث لتجنب ذلك المصير. إذ كان بإمكانه تجنب طلب الضمان الاجتماعى، وتجنب الذهاب إلى قسم الشرطة... مرتين. وكان بإمكانه الخروج من القسم ما إن وصله. وكان بإمكانه إنكار أنه هو ذاته الرجل الذى فى الصورة.

وشرد عقله إلى ما قبل ١٨ عاماً، حيث كان بإمكانه الامتناع عن إخبار العميل الفدرالى عن شحنة الكرايترون الخاطئة بعد حادث اقتحام شركته، وكان بإمكانه الامتناع عن التوقيع على وثيقة إسقاط التقادم، وكان بإمكانه الامتناع عن إرسال شحنة الكرايترون الأخيرة بعدما قرأ التحذير، وكان بإمكانه البقاء فى شركة روكويل وتجنب الأمر برمته، برغم أن ذلك كان يعنى حرمانه من نوادى اليخوت والعقارات الشاطئية. وكانت قائمة التفاصيل التى تدور بخلده طويلة طويلة.

عادت إميلى إلى شقتهما مذهولة ومرتبكة. فخلال لحظة واحدة انهار عالمهما بأكمله للمرة الثانية. وعندما علم المسئولون فى واشنطن بواقعة القبض عليه، لم يسعدوا بذلك، إذ كان من الأفضل تناسى الماضى الفاسد. لكن الزوجين سميث بتصرفاتهما، بدا وكأنهما كانا يتوسلان القبض عليهما ولم يكن لدى الإنتربول خيار سوى اتباع أدنى حد من الإجراءات.

وعندما سمع ميلتشان أخبار القبض على سميث، عرف مثل أى أحد آخر قرأ الجريدة فى ذلك اليوم، أنه سيكون خطباً جللاً، وسيُذكر اسمه مجدداً فيما يتعلق بما أسماه قصة الكرايترون متناهية الغباء. واجتاحته عاصفة من المشاعر المتضاربة.

فمن ناحية كان يستشيط غضباً من الإهمال الرهيب الذى ساد الموقف برمته، ومن ناحية أخرى، كان يشعر بالأسى لأجلهما. إذ لم يكن سميث فى النهاية سوى واحد من الكثيرين الذين يجندهم ميلتشان،ولم يكن أكثرهم أهمية. بل كان بالأحرى أكثرهم مشاكل. فى اليوم التالى، مثل سميث أمام قاض أمر أن يحبس فى سجن ألهورين دى لا تور، على بعد حوالى ٢٥ دقيقة بالسيارة من مالاقا. وذكر القاضى أنه قد يُنقل لاحقاً إلى ريال مدريد ليمثل أمام المحكمة الدولية لتسليم المتهمين.

وكان سجن ألهورين دى لا تور كابوساً. وجد سميث، الرفيق المتعلم المثقف، نفسه فجأة فى حضرة كل مجرم يمكن تصوره.

كان بكل زنزانة مرحاض معدنى بدائى بلا غطاء وحوض غسيل معدنى صغير ليغسل فيه ملابسه الداخلية المتسخة، وجواربه، وأدوات الأكل،وصينية الطعام. أسوأ شىء كان عدم وجود ماء لدفق المرحاض مرتين فى اليوم. وكان عليه ملأ دلو الاستحمام ثم صبه فى المرحاض للتخلص من الرائحة البشعة الكريهة. وكان هناك الكثير من السجناء المصابين بالإيدز، لحد منع مغسلة السجن من قبول الملابس الداخلية أو الجوارب. وتلك كان يجب غسلها باليد فى حوض الغسيل المعدنى الصغير. ولم تكن هناك صابونة غسيل. وكان الجميع يدخنون تقريباً وكان من المستحيل الهروب من الدخان حتى فى زنزانات النوم (جاء ذلك فى وصف شيلر لنظام السجون).

واستحالت الأيام لأسابيع.

كان مسموحاً لإميلى بالزيارة مرة أسبوعياً. وكانا يتحدثان عبر حاجز زجاجى سميك به مكبر صوت صغير، على طراز فيلم "ميدنايت إكسبريس". وكما قال سميث:

"كانت الزيارات الزوجية أحد الجوانب اللطيفة لنظام السجون الإسبانى. ملأتُ استمارة سجناء أطلب فيها زيارة خاصة فى غرفة نوم مجهزة بفراش مزدوج، وملاءات نظيفة، وحمام به دش. كانت العلاقات الخاصة مسموحاً بها مرتين شهرياً فى زيارات مدة كل منها ساعة".

"كنت فى سعادة غامرة عندما أبلغونى أننى مُنِحت تصريحاً بزيارة خاصة من زوجتى التى كان زواجى بها قد استمر لخمسين عاماً بعد ٢٠ يوماً طوالاً مضنية من الابتعاد عنها. وكنا نشعر بالاسترخاء التام أثناء تلك الزيارات الحميمية، ذلك التقليد الرحيم من جانب السجون الإسبانية".

أثناء إحدى الزيارات الزوجية، احتفل ريتشارد وإميلى بذكرى زواجهما الخمسين.

وألقت ظروف السجن الصعبة بحملها الثقيل على كاهل سميث، وفى مخيلته بدأ يقارن بين موقفه وموقف صديقه القديم ميلتشان. وأصبح أسير فكرة "آه لو لم أقابل ميلتشان يوماً! لتغير كل شىء". تمنى لو أنه بقى فى شركة روكويل ونسى أوهام النجاح وامتلاك شركته الخاصة. وذات يوم فى يأسه، كتب خطاباً أعطاه لإميلى يطلب منها إرساله بالفاكس إلى ميلتشان، جاء به التالى:

التاريخ: ٢٢ أغسطس ٢٠٠١ .

المرسل إليه: أرنون ميلتشان منتج الأفلام الشهير.

المرسل: ريتشارد كيلى سميث. نزيل سجن ألهورين دى لا تور فى مالاقا،

إسبانيا.

ويرسَلَ أيضاً إلى: ديبورا بن إسحاق.

عزيزى أرنون،

أتمنى حقاً لو عرفت كيف هو الحال فى السجن. يمكننى أن أخبرك، أن الوضع ليس مبهجاً. أسوأ شيء أننى كنت بعيداً عن زوجتى، فى ذكرى زواجنا الخمسين، والتى كانت فى ١ أغسطس ٢٠٠١ .

أدرك أنك تظن أنك لم ترتكب أى خطأ، لكنك فى الواقع، قد فعلت. أنت السبب فى وجودى فى السجن، لأننى أرسلت إلى شركتك ميلتشان بروس فى تل أبيب، بعض الأنابيب الإلكترونية المسماة بالكرايترون. أتذكر؟ أظن أنك تذكرها.

استخدمت تراخيص وزارة التجارة بدلاً من تراخيص الذخائر لذا ارتأت الحكومة الأمريكية أننى يجب أن أدخل السجن لمدة ١٠٥ عام. قرأت فى الصحف أنك بعت أفلاماً بـ ٤٥٠ مليون دولار إلى قناة تشانل بلاس، القناة التليفزيونية الخاصة بالأفلام المشفرة. آمل أن تكون قد أودعت معظم تلك الأموال فى حسابك السرى فى يونيون بانك فى زيوريخ مثل نسبة الـ٦٠٪ أرباح من كل شيء، ومنها الكرايتون الذى كنت أشحنه إلى شركة هيلى تريدينغ. وأتوقع ألا يكون أحد فى الحكومة الإسرائيلية مهتماً بحقيقة أنك كنت تغتصب نسبة ٦٠٪ كأرباح على كل شيء أرسلته شركة "ميلكو إنترناشونال" إلى شركة ميلتشان بروس. فبعد كل شيء كان نتنياهو رئيس الوزراء الإسرائيلى قبل شارون، يعمل لصالح شركة ميلتشان بروس! هل من الممكن أن جزءاً من نسبة الـ٦٠٪ أرباح التى كنت تغتصبها كانت تذهب لمسئولين فى الحكومة الإسرائيلية؟!

"شاهدت أيضاً فيلم بريتي وومان الذى أنتجته، تهانيّ! كان فيلماً رائعاً.

"ما شعورك وأنت تملك كل هذا المال؟ لطالما تساءلت كيف سيكون شعورى إن امتلكت المليار ونصف المليار دولار التى تشتهر أنت بامتلاكها. ما كنت لأستطيع أن آكل أكثر مما آكل، ولا أن تكون سيارتى أكثر سرعة على الطريق السريع، ولا فراشى أكثر راحة، ولا أن تطارحنى الغرام امرأة سوى زوجتى منذ ٥٠ عاماً، ولا أن يكون حاسوبى أسرع مما هو. ماذا تفعل بهذا المال؟ هل هو رضا الشعور بالقوة؟ لستَ على درجة تعليم تعادلنى، أحمل شهادة الدكتوراه. لذا أنا أفوقك عقلياً. أعتقد أن قوة العقل أهم من قوة المال. لكن لكل منهما قوته الخاصة.

"أرنون! دعنى أخبرك القليل عن الحال فى السجن: أولاً، لا تعليمك ولا مالك يعنيان أى شىء لحراس السجن، فما أنت إلا سجين آخر، مثل مدمن المخدرات، مثل اللصوص المسلحين، مثل القتلة، والأشخاص الذين ارتكبوا جرائم نصب ضد البنوك والحكومات. وعليك أن تأكل ما يقدمه السجن فى أوقات الوجبات، بلا اختيار. وعليك اتباع روتين السجن: تأوى إلى الفراش عندما يأمرونك، وتذهب لمناطق التريض عندما يصرح لك. ما رأيك أن تستبدل أسلوب حياتك الحالى بأسلوب حياة السجن؟ يمكننى أن أخبرك من الآن أن هذا الأمر لن يعجبك!!

"لذا يا أرنون، أشكرك على العمل الذى أديته لشركة ميلتشان بروس. والآن أتعلم كيف هى حياة السجن. لم أظن يوماً أن هذا قد يحدث لى. ربما قد تكفل لك المليار ونصف المليار دولار التى تمتلكها إيجاد مخرج آمن من أى موقف أياً كان الجرم الذى ارتكبته.

"أرنون! إن تم تسليمى للولايات المتحدة ومثلت للمحاكمة بتهمة شحن الكرايترون إلى شركتك ميلتشان بروس، سيعرف العالم أجمع بالصفقات المشبوهة التى كنت أنت

طرفاً فيها، أنا واثق من ذلك.

لا أقدر لك أنك لم ترفع إصبعاً واحداً لمساعدتى بعد إدانتى أو بعدما فررت إلى إسبانيا. أعرف أنك كنت تعلم مكانى فى إسبانيا. كانت ديبورا ستزورنى لكنك ألغيت زيارتها. هل نصحك نتنياهو بعدم مساعدتى؟ أم أنها كانت فكرتك؟ أفترض أنك أمرت ديبورا ألا تزورنى ما أن أبلغتك بمكانى فى إسبانيا. لا أزال أشعر بالرهبة من المليار ونصف المليار دولار التى تمتلكها، لكنك تشعرنى بالغثيان.

صديقك السابق

ريتشارد كيلى سميث

عندما قرأت إميلى ذلك الخطاب أدركت فى الحال أن زوجها قد تخلى عن فطنته. ولم ترسله قط، ولم يره ميلتشان حتى اليوم الذى سلمناه إياه. حيث قال:

"الخطاب يعكس درجة كبيرة من سوء الإدراك من جانب سميث، والذى لم يعرف يوماً أن نسبتى المفترضة من الأرباح لم تؤل إلىّ قط. قلة المعرفة أدت بسميث إلى أن يكيل الاتهامات الرعناء فى وقت محنته.

ومضى قائلاً "لم أعرف، نتنياهو ولم تكن لى علاقة به حتى التسعينيات، بعد إدانة سميث عام ١٩٨٥ . ولم أعرف بمكان سميث حتى تم القبض عليه فى مالاقا بسبب طلب لاكام والموساد منى أن أنأى بنفسى كلياً عن تلك القضية وأتركهما يتوليانها".

ثبت أن تهديد سميث حيث قال "إن تم ترحيلى... سيعرف العالم أجمع بالصفقات المشبوهة التى كنت طرفاً فيها، بمرور الوقت" كان تهديداً خاوياً، ولم توجه أى اتهامات لميلتشان.

كانت الولايات المتحدة تعرف بوضع سميث فى سجن مالاقا لأنهم أرسلوا ممثلاً

من السفارة ليزوره، لكنهم استغرقوا وقتاً طويلاً في الحديث عن عملية تسليمه. كانوا يعرفون أنه محاط بحثالة المجتمع، من القتلة، إلى المدمنين المصابين بالإيدز، إلى تجار المخدرات، إلى لصوص السطو المسلح. كانت المشاجرات تندلع باستمرار من حوله. وشعر بأن حياته في خطر وعاش في حالة خوف مستمرة. وفكر جدياً في الانتحار، لكن التفكير في التأثير المعنوي المحتمل لموته على إميلي وأبنائه حال دون قيامه بذلك. كان كل يوم كالكابوس. وفي أحلك لحظاته الشخصية في مستشفى السجن شاهد الطائرة الثانية تصطدم بالبرجين المزدوجين أو مركز التجارة العالمي في نيويورك، وأخرى تصطدم بالبنتاغون. وتذكر سيره في أروقة وزارة الدفاع البنتاغون كعضو مبجل في المجلس الاستشاري العلمي، ولم يتمالك نفسه من مقارنة تلك الأيام المجيدة بورطته الحالية.

بحلول أواخر سبتمبر ٢٠٠١، كان قد قرر التخلي عن فكرة مقاومة تسليمه أو إنقاذ حياته الرعوية في مالاقا، واستعدت إميلي لشحن أكثر متعلقاتهم قيمة إلى الولايات المتحدة.

وأخيراً في ١٥ نوفمبر ٢٠٠١، بعد أكثر من ١٦ عاماً من هروبه المحموم على رحلة لوفتهانزا إلى فرانكفورت، ألمانيا، تم إعادة ريتشارد كيلي سميث إلى الولايات المتحدة. اقتيد إلى خارج السجن بدون أصفاد إلى السيارة الفولفو السوداء، يصحبه مسئولان من وزارة العدل الإسبانية في رحلة الخمس ساعات بالسيارة من مالاقا إلى مدريد، حيث قضى ليلته الأخيرة في إسبانيا في زنزانة مريحة نسبياً. في اليوم التالي في الواحدة ظهراً، غادر سجن مدريد وتقابل مع مارشالين أمريكيين بارزين.

في يوم الجمعة الموافق ١٦ نوفمبر ٢٠٠١، غادر على رحلة لشركة دلتا إلى لوس أنجلوس مروراً بأتلانتا، ولم يعد إلى إسبانيا مجدداً أبدا. وصل إلى مطار لوس

أنجلوس الدولي في الـ٨:٤٥ مساء وتم اصطحابه في الحال إلى مركز الاحتجاز الفدرالي في وسط لوس أنجلوس، حيث تم إيداعه بزنزانة لشخصين. كانت مقارنة بسجن مالاقا فارهة للغاية، بالرغم أنها كانت بلا زيارات زوجية. وخلال أيام، قامت المباحث الفدرالية باستجوابه بشكل متكرر.

وبعد أكثر من شهر من عودة سميث إلى الولايات المتحدة، كان مكتب المدعى العام الأمريكي يعيد التفكير في قضيته. وآنذاك، لم يَعُد الكرايترون يتطلب ترخيص تصدير ذخائر على الإطلاق. وأعيد معظم الكرايترون الذي شحنه سميث لشركة هيلي تريدينغ إلى الولايات المتحدة وفقاً لاتفاقية بين الحكومتين.

وفي ظل تلك المستجدات الأخيرة، بدأت فكرة قضاء رجل عجوز، وجَدّ متزوج، ١٠٥ عام في السجن بسبب ما كان في الأساس خطأً إدارياً أثناء شحن أحد الأغراض لمن كان بعد كل شيء، حليفاً رئيسياً للولايات المتحدة في الشرق الأوسط، تبدو أكثر فأكثر كردة فعل هستيرية تصاعدت إلى عقاب قاس واستثنائي، خاصة بالنظر إلى ما تكشف بالفعل. فالافتراضات القوية التي سادت في عام ١٩٨٥ والتي ذهبت إلى أن الكرايترون لا يمثل سوى قمة جبل الجليد في أنشطة شركة ميلكو، مع احتمال صوابها آنذاك، لم يعد لها نفس القدر من الأهمية بعد مرور ١٦ عاماً ونصف العام. ثم كان هناك تخوف ألا تقبل أي هيئة محلفين بإرسال رجل عجوز ليقضي بقية حياته في السجن، بينما تجلس زوجته وأبناؤه وأحفاده في قاعة المحكمة يتعذبون.

وفي ٢٠ ديسمبر ٢٠٠١، لان جانب الحكومة الأمريكية، إذ عرضت صفقة استئناف مخففة بشدة، وبعد بضعة أيام من المفاوضات، تم الاتفاق بأن يدفع سميث بأنه مذنب بتهمة واحدة وهي انتهاك القانون النظامي لتصدير الأسلحة الأمريكية، وبتهمة الكذب بشأن محتويات شحنات الكرايترون. وتم تحديد جلسة النطق بالحكم

فى ٢٩ أبريل ٢٠٠٢، على أن يبقى سميث فى السجن طيلة تلك الفترة على الأقل.

وللاستعداد للنطق بالحكم، طلبت إميلى من كل شخص أمكنها التوصل إليه كتابة شهادات لصالح شخصية زوجها. وكان هذا أصدق اختبار لأصدقائه المخلصين، أولئك المستعدون للمجابهة ولارتباط أسمائهم بما يواجهه شخص آخر من متاعب قانونية، فى وقت كان أسهل الخيارات فيه هو التزام الصمت.

وعلى الرغم من أن كثيراً ممن كان المأمول منهم أن يهبّوا ويبادروا بالمساعدة تجاهلوا الطلب، فقد تقدم عدد لا بأس به، بعضهم لم يكن متوقعاً، بالمساعدة، من بينهم أصدقاء الدراسة القدامى، وحبيبة سابقة من أيام الجامعة، وعدد من أصدقائه فى العمل، والعديد من أفراد العائلة، وبضعة من أصدقاء اليخوت، وكثير من أصدقاء نادى المتحدثين بالإنجليزية والنادى الأمريكى فى مالاقا، ثم كان هناك خطاب من مدير شركة ميلتشان بروس لميتد جاء فيه ما يلى:

إلى من يهمه الأمر:

أنا شريك عمل سابق للدكتور ريتشارد كيلى سميث. تم تعيينى من قِبَل شركة هيلى تريدينغ لميتد، وهى شركة تابعة لشركة ميلتشان بروس لميتد ومن قبل شركة ميلتشان بروس لميتد، منذ عام ١٩٦٦ وتقاعدت فى عام ٢٠٠٠ . وباسم شركتى كانت لى علاقات عمل مقربة للغاية من الدكتور ريتشارد كيلى سميث منذ عام ١٩٧٣ وحتى القبض عليه.

"وبالإضافة لعلاقات العمل التى جمعتنا، أصبح الدكتور سميث وزوجته وأبناؤه، أصدقاء مقربين للغاية لى ولزوجى. تقابلنا عدة مرات فى إسرائيل وأيضاً فى لوس أنجلوس عندما زرناها لحضور زفاف ابنته. ومن خلال سنوات عديدة من العلاقات الحميمة، أشعر أننى أعرف الدكتور سميث جيداً. إنه شخص رائع، صادق، مخلص،

رجل عائلة فخور وأمريكي فخور. ليس لدى أدنى شك أنه مواطن يمتثل للقانون ولم يكن ليفعل أى شيء متعمداً خرق القانون. لطالما أرشدني ووجهني في الإجراءات القانونية الأمريكية وفيما يجب اتباعه أو تجنبه.

"أنا مقتنعة كلياً: أنه إذا كان قد ارتكب أى خطأ، فقد فعل ذلك بحسن نية وبدون أدنى سوء يضمره. وأنا مقتنعة أنه إن كان له أن يستأنف حياته العملية، فسيكون بالغ الحذر في المستقبل ولن يتكرر سلوكه في انتهاك القانون.

"الدكتور سميث ليس شاباً. وعلى حد علمي فهو يبلغ من العمر ٧٢ عاماً ولا يتمتع بصحة جيدة. ولقد دفع بالفعل ثمناً باهظاً مقابل الخطأ الذى ارتكبه. ولسنوات عدة، تنازل عن اتصاله اليومي بعائلته التي يعزها بل ويعشقها، وعاش بعيداً عن بلده، وخسر كل ما عمل لأجله طيلة حياته. أتمنى أن تضعوا في اعتباركم كل تلك العوامل لتجدوا مكاناً في قلوبكم للرحمة والعطف عندما تنطقون بالحكم".

ديبورا بن إسحاق

في ٢٩ أبريل عام ٢٠٠٢، دخل ريتشارد كيلي سميث قاعة المحكمة ومعنوياته مرتفعة على الرغم من أنه كان في الثانية والسبعين من عمره وأُجبر على ارتداء زى السجن البرتقالي وكان مكبل الكاحلين بالأصفاد، والأغلال تحيط بوسطه ومتصلة بأصفاد يديه، على طراز معتقلي غوانتانامو باى. أوصى ضباط المراقبة بأن يُطلق سراح الرجل العجوز ويُكتفى بالمدة التي قضاها في الحبس، والتي بلغت عشرة أشهر منذ القبض عليه في مالاقا. وطمأنه محاموه وكذلك زملاؤه من السجناء أن القضاة عادة ما يمتثلون لتوصيات ضباط المراقبة. وامتلأت قاعة المحكمة بأفراد العائلة وبالأصدقاء الداعمين، وبأبنائه وزوجته وبزملائه منذ كان طالباً في الجامعة، وأصدقائه في شركة روكويل، وعدد من الصحفيين. وأخيراً، حانت لحظة الحقيقة.

كانت القاضية باملا آن رايمر، وهى نفس القاضية التى كانت فى قاعة المحكمة عندما تغيب سميث عن جلسة محاكمته فى أغسطس ١٩٨٥، قد تم ترقيتها مذاك لترأس محكمة الاستئناف الفدرالية. واتخذت خطوة غير معهودة إذ تنحت عن موضعها لكى تحاكم الرجل الذى شعرت أنه أهانها هى والنظام القضائى منذ حوالى ١٧ عاماً. ومن منطلق الخبرة، شعرت بأن قاعة المحكمة ستكون مكتظة بالمراسلين الصحفيين.

وإذ تبوأت مقعدها على منصة القضاء، بدأت الجلسة بخطاب افتتاحى، صرحت فيه بأن سميث قضى الستة عشر عاماً فى موقع خلاب فى إسبانيا. وقالت إنها لا تصدق أنه نسى طلب عام ١٩٧٥ لاستصدار ترخيص تصدير ذخائر لطلبية الكرايترون التى تم إلغاؤها.

لم تذكر له إسهاماته العديدة فى مجال الدفاع العسكرى عن الولايات المتحدة على مدار سنين عدة فى ذروة الحرب الباردة. ولم تثن عليه لمحنته الطويلة، ومنها حبسه فى السجن، فى إسبانيا. ولم تُلق بالاً للحوظة أن معظم الكرايترون قد تمت استعادته ولا أن التراخيص لم تعد مطلوبة لتصدير الكرايترون. وتجاهلت حقيقة أن كل الشحنات المعنية كانت إلى أحد أقرب حلفاء الولايات المتحدة فى العالم، وليس لدولة عدوة.

ثم حكمت القاضية رايمر عليه بالسجن لمدة أربعين شهراً وبوضعه تحت المراقبة لعامين وبغرامة ٢٠ ألف دولار. صُدِم لذلك أفراد العائلة والأصدقاء فى قاعة المحكمة، وشعروا بالتقزز والانزعاج. وجلس سميث فى قاعة المحكمة عاجزاً عن الحركة أو التفكير. كان المشهد وكأنه مشهد من أحد أفلام ميلتشان، على الرغم من أنه كان حقيقياً.

تم اقتياده مكبلاً بالأصفاد خارج قاعة المحكمة وعودة إلى زنزانته بينما كانت أسرته تنظر فى فزع. ثم تم نقله لاحقاً إلى مجمع سجون فدرالى فى لومبوك شمال سانتا باربرا، حيث تم احتجازه حتى يُقَل إلى معكسر سجون فى تافت، كاليفورنيا فى أبريل ٢٠٠٤ .

وفى سبتمبر ٢٠٠٤ تم نقله إلى منزل وسيط فى تافت. وفى يناير ٢٠٠٥ أطلق سراحه أخيراً ووضع تحت المراقبة وتم السماح له بالإقامة فى مقطورة متنقلة متواضعة فى لومبوك، كاليفورنيا . والتأم شمله أخيراً بزوجته الحبيبة إميلى، والتى وقفت صامدة بجواره بشجاعة طوال تلك المحنة التى استمرت لعقود.

وفى ١٥ ديسمبر عام ٢٠٠٥، وهو فى الخامسة والسبعين من عمره، تم استدعاء سميث لاستجوابه فى مكاتب المباحث الفدرالية فى ويلشاير بوليفارد فى لوس أنجلوس. وأثناء التحقيق الذى استمر ثلاث ساعات والذى أمطروه فيه بالأسئلة السريعة، طُلِب منه سرد التفاصيل الكاملة لعلاقته بميلتشان منذ أن التقاه فى أواخر الستينيات، حتى آخر اتصال به عام ١٩٨٣ .

وفى مايو ٢٠٠٦، أنهى سميث فترة المراقبة، ولأول مرة منذ عام ١٩٨٥ لم يكن سجين النظام ولا هارباً منه. وبإطلاق سراحه، انتهت قصة ميلكو للأبد، والتى تفادى ميلتشان التورط فيها مجدداً.

عقب تلك الأزمة، جلس الزوجان سميث لتوثيق قصتهما فى كتيب واقعى بعنوان "الاتهام غير المنطقى والسجن، أو تصدير الكرايترون إلى إسرائيل". ومجدداً استخدم ريتشارد اسمه الحركى الذى كان قد استخدمه لفترة طويلة أى الدكتور جون شيلر وأعطى كل الشخصيات المعنية أسماء مستعارة. وأسمى شخصيته الدكتور إرنست كيلى. وأسمى زوجته إميلى آنى وأسمى ميلتشان دانى روتو.

وفى رسالة إلكترونية إلينا، أكد سميث أن كل المعلومات التى نحتاجها نستطيع أن نجدها فى كتاباته. ويمكننا أن نقول بكل ثقة إن القليلين هم الذين استطاعوا الربط بين الدكتور جون شيلر والهارب الشهير من الثمانينيات حتى الآن. وأنهما الشخص ذاته فى واقع الأمر.

ونظراً لكل ما حدث، وجد سميث أنه من المستحيل له التوافق مع واقع ميلتشان وواقعه، إذ إنه يعيش فى منزل متنقل بجوار قضبان السكة الحديد، ويتخيل صديقه السابق يتنقل بطائرته الخاصة بين دول العالم، كانت تلك حقيقة مريرة بالنسبة لرجل كان يوماً يعمل فى أهم شركة لرواد مهندسى الفضاء فى الولايات المتحدة.

وبالتأكيد، يرى ميلتشان الأمر من منظور مختلف كلياً. ليس من المبالغة القول إن ميلتشان يرى أن إسرائيل أنقذت سميث فى الواقع من مصير أسوأ بكثير، وأنه يعتقد أن سميث نفسه -والذى تصرف تصرفات خرقاء فى مناسبات عدة- مسئول شخصياً عن أزمته. وأن تصرفاته عرضت ميلتشان للخطر وأحرجت إسرائيل بل وحتى الولايات المتحدة بكل طريقة ممكنة.

هناك أكثر من طريقة لرؤية الأمر، لكن الواضح تماماً أنه أثناء التسعينيات، وبينما كان كل ذلك يحدث، حقق ميلتشان أحد أنجح الإنجازات فى تاريخ هوليوود، وحققها معتمداً على نفسه.

وما بين صيفى ١٩٨٥ و٢٠٠١، أنتج ميلتشان ما مجمله ٦٦ فيلماً، وأثر فى ثقافتنا الشعبية بأضخم أفلام العصر.